HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

تقوية المشترك الحضاري
أنساق العلاقات الروحية بين المغرب وبلدان أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث

عبد الله الحاجي[1]

[1] أستاذ التعليم العالي، مركز تكوين الأساتذة CRMEF-SM، جهة سوس ماسة، أكادير، المغرب.

Email: elhajji2008@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/11/12م تاريخ النشر: 2020/12/01م

المستخلص

الموضوع الذي بين أيدينا يؤسس للمشترك الروحي والحضاري بين المغرب ودول أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث، الذي تصل جذوره إلى عهد الدولة المرابطية بالمغرب، هذه الأخيرة التي استطاعت توحيد معظم الغرب الإسلامي معتمدة على قبيلة وعصبية صنهاجة الصحراء، والمذهب السني المالكي كشعار وغطاء ديني إصلاحي، وبذلك بدأت الدولة المرابطية الناشئة تتقدم نحو المغرب الأقصى لتوطيد نفوذها فيه، وتقيم بعد ذلك علاقات مع بلدان السودان الغربي.

كان الاتصال بين المغرب ودول أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث قويا من الناحية الفكرية والروحية والحضارية، نظرا للتواصل الدائم بين هذه البلدان، وفي هذه الآونة ظهرت الزوايا الدينية التي انبثقت عنها الدولة السعدية، حيث عملت على تقوية هذا المشترك، وتنشيط الجوانب الاقتصادية التي ازدهرت بين المغرب وهذه الدول خلال هذا العصر إلى أن تدخَّل أحمد المنصور السعدي عسكريا في شؤون السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: الدولة المرابطية – صنهاجة الصحراء – السودان الغربي– المشترك الروحي والحضاري المذهب السني المالكي – الدولة السعدية

RESEARCH ARTICLE

Promoting Common Heritage

The structure of spiritual relationships between Morocco and sub-Saharan African countries in the modern era

Abdallah EL HAJJI [1]

[1] Higher Education Professor, Souss Massa CRMEF-SM Center, Agadir, Morocco, Email: elhajji2008@gmail.com

Accepted at 12/11/2020 **Published at 01/12/2020**

Abstract

The present paper highlights the common cultural and spiritual Heritage between Morocco and sub-Saharan African countries in the modern era and which takes its root way back in the area of the almoravids dynasty. The latter succeeded in unifying southern Islamic states thanks to, not only the fanaticism of Senhaji clan, but also the Salafi Al-maliki ideology which was adopted as a religious cover.

The intellectual, spiritual and cultural interchange between Morocco and sub-Saharan African countries was strong in the modern era owing to the constant interchange between those countries. in the era of Saadian dynasty, this Heritage together with all economic aspects were promoted until the military intervention of Mansour Al Saadi in the Affairs of Southern Sudan.

Key Words: Al-almoravids- Southern Islamic States- Senhaji - al-maliki ideology - Southern Sudan

تقديم

هذا الموضوع الذي سنحاول سبر أغواره، هو من العمق والأصالة والجاذبية والتحدي بمكان، ذلك أنه من المستحيل الإحاطة بجميع جوانبه، فقبل أن نُغْمِد القلم في المحْبرة، ارتأينا أن نؤسس لهذا العمل الذي يهُمُّ المشترك الروحي والحضاري بين المغرب وبلدان أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث، وهمنا الأساس أن نقارب هذا الموضوع بغية التخلي عن مجموعة من المفترضات الأولية وذلك بالأخذ بطرق البحث الأَحَدِية الجانب، لكي تتم مقايسته مع ظرفيات عاشتها المناطق الشمالية والغربية شمال الصحراء.

لمحة عن بلدان أفريقيا جنوب الصحراء في العصر الوسيط

أوقفتنا المصادر التي تتحدث عن الوضعية الدينية في إفريقيا جنوب الصحراء هنيهة لنرى ما ستجود به علينا من إضافات في العصر الوسيط، فوجدنا أن علي بن أبي زرع الفاسي هو الذي استدرك على بعض المؤرخين أمثال ابن سعيد التطورات التي عرفتها الحركة المرابطية بالصحراء وبلاد السودان الغربي بعد العام 460هـ/1088م.

صحيح أن فاس والمغرب عامة شهد نوعا من الرخاء الاقتصادي خلال القرن الخامس الهجري لكن بعض مصادر الفترة تحدثت أيضا عن الشدة والخوف والأزمات، حيث تحدث ابن أبي زرع في "روض القرطاس" عن اتخاذ أهل فاس المطامير لطعامهم. فهل مِثْل هذا الوصف هو تبرير لظهور المرابطين، لإزالة المظالم عن الناس؟ أم أن المرابطين بسيطرتهم على طرق التجارة الصحراوية هم سبب هذه الوضعية الاقتصادية والاجتماعية التي يأتي الحديث عنها فجأة بعدما طال الحديث في المصادر عن الرخاء؟

لاحظنا أن الدولة المرابطية استطاعت أن توحد معظم الغرب الاسلامي معتمدة على عصبية صنهاجة الصحراء والمذهب السني المالكي كشعار إصلاحي جذاب خلال العصر الوسيط، وقد امتلكت في نفس الوقت قوة مادية تعتبر عمقا استراتيجيا وذلك بفضل سيطرة المرابطين على أهم طرق التجارة الصحراوية، منذ نزوحهم نحو جنوب المغرب الأقصى، فأصبح مجال تحركهم بين جبال الأطلس وبلاد السودان –حسب ابن خلدون–.[1]

وأهم قبائلهم ثلاث، لمتونة وهي أقواها وتعيش في شمال غرب الصحراء وكدالة في جنوبها الغربي ومسوفة تستقر على طول الطريق بين سجلماسة واود غشت، أي في مناطق أكثر صحراوية، وهذا يجعل مجال تحركها متَّسقا من الهُكار إلى حوض النيجر، وقد ظلت تسيطر على خط التجارة بين سجلماسة وأود غشت مرورا بممالح تَغَازَى.

أما لمتونة فقد كانت تراقب خطين للتجارة خط ساحلي بين مصب نهر السينغال وسوس، وخط داخلي بين أود غشت ودرعة، أي أن صنهاجة كانت الوسيط التجاري بين أرض السودان الغربي والشمال الافريقي.[2] فهل كان الدافع المادي وحده وراء تمدد المرابطين شمالا؟

لا شك أن هناك عنصرا مهما كان يوحد المرابطين ويحفزهم وهو العنصر الروحي المتمثل في الدين. لقد أخذ الاسلام يتسرب إلى صنهاجة الصحراء بواسطة الاتصال التجاري مع قبائل لمطة ومسوفة و لمتونة[3]، بل ويصبح تعميقه أمرا حقيقيا خاصة وأن الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي عند لقائه بفقيه المالكية بالقيروان أبي عمران الفاسي، شَكَا له جهل قومه لعدم اتصالهم بغير تجار جهله لا يحيطون بالأمور العامة للدّين، فأرشده إلى فقيه من أصل صنهاجي صحراوي هو وكاك اللّمْطي الذي كان يدرّس العلم بإحدى مدن جنوب المغرب الأقصى، فوجه معه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي الذي ينتمي هو الآخر لإحدى القبائل الصحراوية، بالفعل توجها مباشرة إلى قبيلة كدالة المتاخمة لزنوج جنوب الصحراء، فحاول الفقيه ابن ياسين اتباع أسلوب التدرج في التعليم من العبادات إلى المعاملات فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنعزل الفقيه في رباط قرب مصب نهر السنغال، فكان هذا الاعتزال أحسن

---

[1]–عبد الرحمن بن خلدون. العبر وديوان المبتدأ والخبر...ج 5 ص 273.

[2]–عبد الله الحاجي. السكر: اوراش في التاريخ الاقتصادي... قيد الطبع، 2020.

[3]–كانت هذه القبائل تضع اللثام الذي هو سنة لهم توارثوه خلفا عن سلف حسب ابن خلكان في وفيات الأعيان– وسبب ذلك شدة الحر والبرد، وقيل إن قوما كانوا يغيرون على نسائهم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويبقوا هم في البيوت ملثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو خرجوا إليه وقتلوه، فلزموا اللثام تبركا به

دعاية له. هذا الرباط[4] يمثل مركزا تعليميا تربويا يعود على تحمل المشاق من أجل جهاد الكفار والخارجين عن الدعوة، وهي مبينة أصلا على أسس المذهب المالكي.

لقد كانت مسوفة ولمطة تجاوران شمالا مراكز التجارة المهمة كسجلماسة وتارودانت، والارتباط بالعنصر الديني سيتجلى في تطبيق المذهب السني المالكي وعدم التسامح مع غيره من المذاهب والبدع، وسيظل الفقهاء يمثلون السلطة الرمزية المهمة في الدولة، في حين يحاربون التيارات الفكرية التأويلية. لقد كان الاحتكاك المادي مع الصحراء يؤدي إلى ربط علاقات تجارية خاصة مع مدينة أوْدغُشت التي تكتسب ثروتها من الإبل والتجارة، لذلك نجد بعض المدن تتكامل معها مثل نُولْ مركز صناعة الدّرَق اللّمْطي وصناعة السُّروج وعُدّة السفَر، ومدينة تارودانت تشتهر بصناعة الثياب الرفيعة وصناعة السكر وتستقبل التجارة القفلية، أما مدينة سجلماسة فيكثر فيها التمر والحناء والقطن غيرها.

لقد أمدّتْنا كتابات شهاب الدين أحمد العُمري الذي ولد بدمشق في العام (700 هـ) وتوفي بها 749هـ بمعلومات عن مملكة مالي خاصة مؤلفة في الباب العاشر منه، حيث كانت له مخابرات شفهية مع الحُجّاج القادمين من جنوب الصحراء في العام (724هـ).

أما محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة "رحّالَةُ هذه المِلّة الإسلامية" الذي ولد بطنجة في العام (703هـ–1303م)، خرج من موطنه حاجّاً في العام (725هـ– 1325م) ولم يعد إلا بعد خمسة وعشرين عاما، لكن مع مطلع العام (752هـ/1352م) سافر في رحلة ثانية إلى بلاد السودان، وأقام بمالي قرابة سنتين، ووفد على السلطان (مِنيسّا) سليمان بعاصمة ملكه "نْيَاني" وقد كانت معلوماته عن هذه الرحلة ذات قيمة هامة بالنسبة لتاريخ مالي وبلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط.

أما عبد الرحمان بن خلدون الذي كتب مؤلفَهُ "العبر وديوان المبتدأ والخبر" في قلعة ابن سَلاَمة بالمغرب الأوسط ما بين العام (776هـ و780هـ)، فقد خصص هذا الفصل الذي كتبه عن السودان ومالي، بالاعتماد على الروايات الشفهية، عندما كان مقيما بمصر، وهو لا يخلو أيضا من إضافات مهمة.

إلا أن رحلة الحسن الوزان[5] إلى بلدان افريقيا جنوب الصحراء تعتبر بحق الإضاءة الحقيقية في الموضوع، نظرا لأنه شاهد عيان ومعاصر للأحداث، وهو شخصية علمية وازنة، حيث ترك الوزان من خلال كتابه "وصف افريقيا" بصمات جُلّى في المجتمع المغربي الذي عاش فيه سواء من حيث التأشيرُ والتأثر، وقد رسم ليفي بروفنصال صورة حول شخصية الحسن الوزان واعماله خلال رحلاته في مؤلفه والتي"لا زالت أصولها شاخصة إلى الآن، لم يغير الدهر منها شيئا كثيراً، وإن الناظر إليها اليوم سرعان ما يشعر وكأنه يرجع أدْراجاً إلى عهود فاس القديمة ويشاطر اهلها الحياة برهة من الزمن" "[6]

وتبقى أعمال محمود كعْتْ الذي ولد في العام (872هـ/1468م) أهم مصادر هذا العصر إذ شغل كعت منصب الكاتب الخاص للسلطان أسكيا محمد، حيث حج معه في العام (902هـ/1495م) وبدأ في كتابة مؤلفه "تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس"[7]في العام (926هـ/1519م) حيث توفي عن سن تناهز 125 سنة.

كما يعتبر مؤلف عبد الرحمان السعدي[8] "تاريخ السودان" خلال القرن 10هـ/16م الذي حققه هوداس، مصدراً أساساً لهذا العصر. وقد كان آخر حدث يذكره السعدي في تاريخه يعود للعام (1065هـ/1655م) وربما هي سنة وفاته.

إن مصطلح السودان الغربي لم يكن معروفا في المصادر والنصوص العربية القديمة، إلا مؤخراً: وقد أطلق هذا المصطلح على

---

[4]–الرباط: يطلق عليه في المشرق الخوانق والخانقات وهو لفظ عجمي، وفي اصطلاح الفقراء هو عبارة عن موضع يُلزم فيه للعبادة حسب ابن مرزوق التلمساني، المُسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن، مخ خ ع/ق 3 الباب 42. أما الزاوية فيقول اليوسي في المحاضرات: "وليعلموا أن الزاوية لا حقيقة لها شرعا ولا ذكْرَ لها: وإنما هي لفظة محْدثة.

فاطمة القبلي: رسائل اليوسي، ج2، صص: 371–372. وذهب "دوزي" أن كلمة زاوية اقتباس عربي عن الإغريق (R) Dozy. Supplement aux ditionnaires arabes. Leyde. Paris.1968.P 615. أنظر

[5]–عبد الله الحاجي، رحلة الحسن الوزان إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء: تقاطعات الأبعاد الفكرية والأبعاد الحضارية. قيد الطبع

[6]–ليفي بروفنصال– مؤرخوا الشرفاء، نشر هوداس. ص. 87.

[7]–محمود كعت، تاريخ الفتاش ... باريس، نشر هوداس، 1964م.

[8]–عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، ولد بتنبكتو (1004هـ–1596م)، كان معاصر الحفيد محمود كعت الذي أتم تاريخ الفتاش".

المناطق التي يسكنها السكان ذوو البشرة السوداء، إلا أن التقسيم بدأ يشير مؤخرا إلى السودان الغربي والسودان الأوسط والسودان الشرقي خاصة في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين، حيث اتفقت كلها على أن التجارة كانت السبب الرئيس في انتشار الدين الإسلامي في هذه الأقاليم حيث يقول "يوسف فضل": "ومن الشمال الإفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان، حيث نشأت السّلطنَات السودانية الإسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية وفيها تفاعلت الثقافة العربية الإسلامية مع المؤثرات الإفريقية".

إرهاصات التأثير العقائدي على المنطقة

نظرا لأن الاسلام شكل قوة دينية فكراً وحضارةً، فإن هذا الاتصال بين المغرب وبلدان افريقيا جنوب الصحراء كان قويا في الميدان العقائدي الروحي والفكري، حيث راجت في كل هذه المناطق المؤلفات المغربية الإسلامية، حيث ذكر الوزان أن مخطوطات الكتب النّادرة المكتوبة بالمغرب تصل إلى تنبكتو وتباع بأثمان باهضة، تفوق ما يدفع مقابل أية سلعة أخرى، ولا تكاد تجد قافلة قادمة من المغرب خالية من المخطوطات.[9]

بدأت ممالك السودان الغربي تشهد تغييرا كبيرا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، تحت زعامة مملكة مالي، التي بلغت درجة كبيرة من القوة والنفوذ والتوسع، حيث بدأ ملوكهم يعتبرون دولتهم جزءاً من دار الإسلام، ولهذا ربطت علاقات ودية مع المغرب، وبذلك أصبحت مملكة مالي تظهر على الساحة الاسلامية سرعان ما ظهرت مملكة "كاغو" التي أسسها محمد أسكيا الملقب بأسكيا الكبير، حيث طبق مبادئ الدين الاسلامي في العام (1493م) وتوارث حكمها أبناؤه من بعده الشيء الذي أهلها للدور المهم المتمثل في التأثير العقائدي.

نتساءل تساؤلات نقدية مشروعة من قبيل: هل هناك مبررات للانخراط في التنافس حول الخلافة الشرعية؟ بل وحتى الولاية العظمى؟ وهل أصبح أسكيا محمد مؤهلا لهذا المنصب؟ وهل له مقومات الاستحواذ على الزعامتين الزمنية والروحية؟

كان هذا التنافس واضحا بين العثمانيين والسعديين ودولة سنغاي التي كانت تدبر شأنها العام في استقلال نسبي عن الخلافة العباسية، بالرغم من وجود هذا المجالس لديهم، لذلك فالصراع حول "الخلافة والمشروعية" ظلّ محتدما بين العثمانيين والسعديين، حيث حاول الأوائل استكمال سيادتهم على كل شمال أفريقيا بضم المغرب لنفوذهم، يظهر ذلك في المراسلات والبعثات من الباب العالي إلى السلطان السعدي محمد الشيخ وأهمها الرسالة التي جاء بها العالم أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي إلى سلطان المغرب[10] محمد الشيخ الذي كان يطمع هو الآخر أن يتجه صوب بلاد المشرق إذ كان يردد دائما: "لابد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أجحارهم وأنازلهم في ديارهم، فتخوف منه السلطان سليمان القانوني".[11]

لذلك وجدنا أن العالم والسفير المغربي إلى الأتراك "علي بن محمد التمكروتي" قد تناول قضية "الخلافة" اثناء سفارته لدى الباب العالي، بل وعمل على تقويضها من منطلقات دينية، وجعلها محصورة في أحمد المنصور السعدي الذي حاز على هذه المقومات.[12]

كان حكام سنغاي وبالأخص أسكيا محمد الحاج يفتقدون هذه المقومات وهذا ما جعلهم يبحثون عن مصدر آخر للشرعية سيجدونه في التفويض" الذي ذكره محمود كعت في كتابه وملخصه أن أسكيا الحاج محمد عند أدائه لمناسك الحج، قال له الخليفة العباسي: "يا هذا أنت الحادي عشر من الخلفاء الذين ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنك جئتنا ملكا، والملك والخلافة لا يتفقان..."[13]

وهذا ما جعل أسكيا محمد يترك مظاهر السلطنة حتى حاز مقومات الخلافة وصفاتها.[14]

---

[9]–الحسن الوزان. وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر عن الفرنسية، ج2، ص 167.

[10]–محمد حجي، مذكرات من التراث المغربي، ج3، ص 185.

[11]–الافراني، نزهة الحادي... ص.86

[12]–علي التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، المطبعة الملكية، الرباط، 2002، صص:136/135.

[13]–كعت، تاريخ الفتاش...مصدر مذكور ص 12 +الفشتالي. مناهل الصفا... ص. 75.

[14]–نفسه+الأفراني، النزهة...ص89.

لقد بقيت الطريقة الجزولية[15] محافظة على إرث التصوف المغربي الذي كانت تمثله الطريقة الشاذلية بالمغرب[16] لذلك أسس الشيخ الجزولي مجموعة من الزوايا حتى فاقت شهرته الآفاق، واجتمع له مريدون كثيرون، وكانت دعوة امحمد ابن سليمان الجزولي إصلاحية وسياسية تهم الدين والدنيا، سخر لها المئات من الدعاة انتشروا في التراب المغربي وفي دول أفريقيا جنوب الصحراء. هذه الطريقة الصوفية كانت مرتبطة بالطريقة الشاذلية المتصلة سنداً بطريقة الإمام الجنيد، وهي أسلم الطرق الصوفية–فيما نعلم– من البدع والضلالات وأقربها من السنة المحمدية، لذلك اعتبرت في المغرب طريقة رسمية في التصوف إلى جانب المذهب المالكي في الفقه، والعقيدة الأشعرية في التوحيد.[17]

لنا وقفة سريعة مع الشيخ احماد أوموسى الذي اتصل بأبرز أتباع الشيخ الجزولي امحمد ابن سليمان وهو الشيخ عبد العزيز التباع إذا كانت العلاقة بين الرجلين تتوطد شيئا فشيئا إذ: "هو من أصحاب الشيخ عبد العزيز التباع وعلى يده فتح له"[18]. لقد لاحظنا كيف تقيد احماد أوموسى بمبادئ الطريقة الجزولية التي أخذها عن التباع والغزواني[19] ورحال الكوش[20] وسعيد بن عبد النعيم المناني[21] وعبد الله بن حسين المغاري[22]، ثم اتصاله بالشيخ الراشدي الملياني، نزيل مليانة، بالجزائر. الذي أمره بالخلوة التي دامت سنتين ثم بالسياحة بعدها وهذا ما جعل الشيخ أحمد أوموسى يستكمل سلسلة سنده الصوفي المزدوج الموصل إلى الجزولي وإلى أحمد زروق.

وقد أفادنا البعقيلي في مناقبه إلى انتقال الشيخ أوموسى من الهامشية الاجتماعية إلى موضع الريادة الملائم اقتصاديا ودينيا، حيث يتجلى ذلك في من أشار إليه بأن: "تبني فيها جامعا نعبد الله فيه"[23] ثم "تستغلها مدة حياتنا، ونترك أولادنا في السعة ورغد العيش.[24] لكن المختار السوسي بين أن الشيخ احماد أوموسى قرّر الابتعاد والانزواء في مكان بعيد عن الأهل، وهي عادة المتصوفة.[25] هذا الانتقال المفاجئ إلى تازروالت تزامن مع صعود الدولة السعدية، واتخاذها مدينة تيدسي عاصمة لها، مدعّمة من طرف الوليين محمد بن المبارك الاقاري وأبي البركات محمد التيدسي، أقطاب التصوف بسوس و أقا على ذلك العهد.

أكد أحمد الرسموكى في وفياته[26] أن محمد بن أبي بكر التيدسي كان يتمتع بنفوذ روحي كبير في بلاد سوس، وهذا ما جعله يحظى بمكانة رفيعة لدى السكان، يشرف على أعمال الجهاد في كل سوس، ويفتدي الأسرى، ويتفاوض مع النصارى من أجل الحصول على هدنة، تجعل قبائل ناحية سوس في مأمن من الغازات البرتغالية التي تصل إلى تيدسي وتارودانت وكسيمة..[27] المهم في هذه المحطة أن نبين أن أقطاب التصوف في العهد السعدي احماد أوموسى ومحمد بن أبي بكر التيدسي ومحمد بن المبارك الاقاوي، تميزوا بمجموعة من الخصائص أهمها المحاولات الاصلاحية التي يتزعمها الفقهاء والصوفية الذين يجمعون بين العلم والعمل.[28]

ولعل استقرار الشيخ احماد أوموسى بتازروالت، أملته ظروف عديدة، اذ نلاحظ أن الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة تبين أنها تنتمي لنفس

---

[15]–منظر الطريقة الجزولية هو محمد بن سليمان الجزولي، انظر الحاجي، تقاطعات المجتمع، الثقافة والذهنيات في العهد السعدي ص17 وما بعدها.

[16]–داوود الكرامي، بشارة الزائرين الباحثين في حكاية الصالحين، ص3.

[17]–الحاجي. تقاطعات المجتمع...، م. م، ص 17.

[18]–المهدي، الفاسي. ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الاتباع، صص: 1–20.

[19]–أدفال. تقييد، ص 5.

[20]–أنظر عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد...ص 28–29.

[21]–ابن عسكر، دوحة الناشر...صص: 201– 103.

[22]–انظر ترجمته في فهرس أحمد المنجور، ص. 19–20 +أحمد بابا التبكتى، كفاية المحتاج، ص 74.

[23]– احمد البعقيلي، مناقب البعقيلي. ص21.

[24]–البعقيلي، م. م. ص 21.

[25]–المختار السوسي، المعسول، ج 12، ص 10.

[26]–أحمد الرسموكي. وفيات الرسموكي، مصادر المعسول (2) تحقيق المختار السوسي، ص 38.

[27]– عبد الله الحاجي، الدولة السعدية...(م. م)، صص. 27– 28.

[28]–نفسه. ص 27

الحقل، بحيث ترتبط كلمة "إزركين"[29] "بأزروال" الذي "يؤنث على تازروالت ويجمع على تيزروالين"[30]، لذلك يمكن إن تكون هناك علاقة بين "إزركين"[31] التكنية وبني زروال، ولهذا نجد أن الصنهاجيين في وادي نون تجمعهم علاقات تاريخية منذ عهد بعيد.

لعل JuStinard[32] في أبحاثه قد ربط بين الموقع الجغرافي والأهمية الاقتصادية التي عرفتها المنطقة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك لوقوعها بين الشمال الافريقي ودول افريقيا جنوب الصحراء، وهو ما أدى بها إلى أن تستحوذ على الوساطة التجارية بين هاتين المنطقتين، أما الباحثة الفرنسية Jaques(D) Meunié [33] فقد أكدت على أن منطقة تازروالت هي من أحواض الأطلس الصغير الغنية بالمياه التي تحتاجها الزراعات واستقرار السكان. أما Paul Pascon [34] الذي خبر تازروالت جعلها منخفضا صغيرا محاطا بتضاريس مرتفعة أكثر حظا من حيث التساقطات.

إن التركز الذي حصل لمعظم الزوايا بالجنوب المغربي أدى بها إلى أنها ستلعب دوراً حاسما في تفجير الأوضاع بالمغرب في القرن السادس عشر الميلادي، وهو الذي سيسمح للصوفية بتنظيم البوادي وتعبئتها.[35] لذلك أصبح سوس يمثل مركز إشعاع لجل الطرق الصوفية، حيث إن الحركة الجزولية ما زالت لها جدور وامتدادات. وكان الرابط بين هؤلاء المتصوفة هو اعتمادهم على التربية الصوفية والتدريس كعنصر جذب للمريدين، من أمثال الشيخ سعيد بن عبد النعيم الحاحي والشيخ أبي البركات التيدسي والشيخ احماد أوموسى، وأضاف بعضهم لهذه الالتزامات، الاهتمام بالمشاريع الكبرى كاستصلاح الأراضي الفلاحية وبناء القناطر والجسور الذي برز فيه الشيخ امحند أوبراهيم التمنارتي قصد تأمين المعيشة للسكان أثناء المساغب والأوبئة.

لقد عرف احماد أوموسى بتطبيقه للطريقة الجزولية التي تعتمد على مبدأين في أمر الجهاد، الأول جهاد من أجل الرفع من مردودية الأراضي الفلاحية لمواجهة الخصاص.

والثاني جهاد فعلي ينتهي بحمل السلاح ومحاربة العدو، حيث يؤكد الشيخ امحمد بن سليمان الجزولي أن: "دولتنا هي دولة المجتهدين المجاهدين المقاتلين في سبيل الله.

لقد أفاض الشيخ أحمد زروق القول عن أتباع الجزولي بأنهم "قوم اثروا المصالح العامة، وتتبعوا الفضائل، فجنحوا الإطعام الطعام، وإقراض العوام، ومعاناة الظلمة في الرد على الظلم...ومن ذلك التعرض للأمور العامة كالجهاد وردّ الظلامات، وتغيير المناكر بطريق القهر والاقتدار دون يد سلطانية، ولا ما يقوم مقامها من المراتب الشرعية"[36].

كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من الشيخ احماد أوموسى قطب سوس الأول فيما يخص علم الباطن، حيث يذكر أحمد أدفال في تقييده أن له "ثلاثمائة وخمسين شيخا فمن دخل هذه الحوانيت، كأنه لقيهم كلهم، ويعني بالحوانيت زاويته"[37]

وقد كان العالم أحمد بن عبد الرحمان التزركيني المسكدادي يشجع الطلبة على الاستقرار للدراسة في سوس فقد قال لأحدهم "العلم الظاهر والباطن، إن كان مرادك الظاهر فأي شعبة شيئت من جزولة أخذته منها، وإن كان مرادك الباطن فخليق له ذلك الرجل الذي كُنْتَ عنده، لو كان يقبلني لكنت له أمة"[38]

كان الشيخ احماد أوموسى واعيا للقرآن الكريم، وهو عامل مساعد للفْت اهتمام الأتباع والمريدين وتسهيل استيعابهم لمعا نيه حيث

---

[29]– مصطفى ناعمي. مادة إزركين، معلمة المغرب، ج1، صص: 339–340.

[30]–محمد شفيق. أسماء الأماكن معظمها أمازيغية، مجلة البحث العلمي، ع27 يناير–يوليوز 1977، ص. 33.

[31]–ناعمي، م. م. ص. 339.

[32]–Justinard(L.C). Notes sur l'HiSToire du sous au 16 S, Hésperis Tamuda, 1925,P266 SIDI Ahmed ou Moussa, in AR chives Marocaines, P. 12.

[33]–Meunié (J.D) Le Maroc Saharien des origines à 1670, P.113.

[34]–Pascon(P). La Maison d'Iligh, P1.

[35]–محمد القبلي. مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الآداب، ع3، و4، الرباط، 1978، ص. 43.

[36]–أحمد زروق. فوائد من كناشة زروق، مخطوط خ. ع، الرباط، رقم:9 1385، ص.51.

[37]–أحمد، أدفال، تقييد، ص4

[38]–نفسه ص4

قال: "لمن سأله معرفة الله: ماؤك في رحلك وكنزك تحت جدارك"[39] وهو إشارة من الشيخ إلى قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" لذلك نجد علماء سوس كانوا دائمي الزيارة للشيخ احماد أوموسى، كما كان دأب الشيخ امحند أوبراهيم التمنارتي الذي "ورد على الشيخ رضي الله عنه زائراً بقصر" تسلا"، واخذ سيدي امحند في وعظ من حضر" وهو ما استمر عليه ابن الشيخ أوموسى "عبد الباقي" الذي "له يد في المعارف، وقد رأينا خطّهُ، ولا يزال لذكره دَوِيّ" عند أهله، يذكرونه بكل خير"[40]

وقد كان الشيخ الصوفي المحدث الرحلة أبو العباس أحمد بن محمد أدفال عرف بالسوساني ثم الّدرعي عالما سائحا له رحلة أو رحلتان، لقي فيها أعلام المشايخ بالمدينة المشرفة ومكة المكرمة ومصر، حيث أجازوه في علم الحديث والطريقة، ثم لقي بالسوس الأقصى الشيخين القطبيين أحمد بن موسى الجزولي والشيخ سعيد بن عبد المنعم الداودي الحاحي.[41]

البيئة التي استقر فيها الشيخ احماد أوموسى تتميز باقتصاد القلة، رغم أن الشيخ قد استصلح مجموعة من الأراضي الموات واعنى بزراعتها حسب الحضيكي[42] وذلك لكي يؤمن للزاوية الوظيفة التي اضطلعت بها وهي إطعام المساكين والطلبة وابن السبيل. لكن المصدر الرئيس الذي لا يمكن أن نتجاهله بأي حال من الأحوال هي الأهمية الاقتصادية لمنطقة تازروالت[43]، فهي أولا مجال يتكامل فيه العمق الاقتصادي بين سكان الجبال وسكان الأودية المحيطة بها وكان السكان يهبون الحبوب للزاوية[44] ومن حسن الطالع أن منطقة تازروالت هي ممر دائم ومؤمن للتجارة القفلية الآتية من السودان الغربي عبر إفران الأطلس الصغير والمتجهة نحو أكادير وماسة وتارودانت، لذلك فالزاوية تصلها مداخيل إضافية اعترافا من التجار بأهمية الشيخ احماد أوموسى[45]، ورغم ظروف القلة التي عرفتها الزاوية، فإنها خصصت للسلطان عبد الله الغالب ما "يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة، وقدم إليه التمر الجيد واللبن"[46] وفي أحايين عديدة تتدخل كرامات الشيخ لإطعام ضيوف الزاوية، خاصة في أوقات الشدة.[47]

لكن كيف كان الخطاب المنقبي للشيخ احماد أوموسى غداة زيارة السلطان عبد الله الغالب لتازروالت؟ وما هي أهداف الزيارة؟ هل هي ذات توجه سياسي؟ أم ذات هدف تطويعي لساكنة سوس وأوليائها كي تخضع للسلطان؟ أم هي مجتمعة؟

انتقل السلطان عبد الله الغالب إلى تازروالت بالسوس كما ذكرنا آنفا، بعد توليه العرش الذي حصل بعد اضطهاد كبير راح ضحيته العديد من أفراد الأسرة السعدية، ولم يجرؤ أحد على دفن الأموات، حتى تطوع الشيخ أبو عمرو القسطلي الذي دفنهم بمقبرة الشيخ امحمد بن سليمان الجزولي. وفي هذا الإطار اندلعت ثورات في سوس (965هـ) ودبْدُو (965هـ) ومراكش (966هـ) كان جزاء الثائرين إما الحبس أو القتل، لكن تمكن أحمد وعبد الملك من الهروب والاستنجاد بأتراك الجزائر.[48]

صحيح أن المستقبل أصبح مظلما لذلك لجأ عبد الله الغالب إلى خطب ود الأولياء وتفقد أحوالهم بعد المحن التي مارسها ضدهم، وهكذا وفد عليه الشيخ محمد بن عبد الله المدغري (ت970هـ) "فوعظه وحرضه على العدل والرفق بالرعية"[49]. كما كان يزور الشيخ أبا عمرو القسطلي المراكشي (ت 974هـ) الذي كان يقابل السلطان بحفاوة عالية[50].

---

[39]–محمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، ج، ص6.

[40]–المختار السوسي، المعسول، ج12، ص. 57.

[41]–الشيخ أحمد أ دفال هو صوفي من أعلام درعة، أخذ عن مشاهير العلماء في المغرب والمشرق، حيث صحب الشيخ احماد أوموسى السملالي، انظر ترجمته في "مناقب" الحضيكي، ج1، ص41–43، و"الإعلام" للمراكشي، ج2 صص: 91–93، والحركة الفكرية– لحجي، ج2، صص: 553– 603.

[42]–الحضيكي، مناقب، ج1، ص8.

[43]–Justinard (L.C), sidi Ahmed ou Moussa, op cit, P22.

[44]–السوسي، خلال جزولة، ج4، ص 149.

[45]–خديجة الراجي، مساهمة في دراسة تاريخ الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس (853–971هـ) رسالة مرقونة، كلية الآداب، الرباط، 1993، ج1، ص 94.

[46]–المهدي الفاسي، ممتع الأسماع...، م م، ص50.

[47]–الحضيكي، مناقب، م م، ج1، ص2.

[48]–عبد الله الحاجي، الدولة السعدية...(م م) ص 229 +مؤرخ مجهول، تاريخ الدولة السعدية ... صص. 33–34.

[49]–محمد بن عسكر، دوحة ...ص88.

[50]–أبو القاسم الحلفاوي، شمس المعرفة في سيرغوت المتصوفة، م خ ع، الرباط، رقم د: 1720، صص 116– 120.

المصادر التاريخية سكتت عن أهداف رحلة السلطان عبد الله الغالب إلى تازروالت، فالبعض يجعلها فرصة لإنتاج خطاب منقبي من طرف شيخ الزاوية يضمن للسلطان الاستمرارية في الحكم[51] والبعض الآخر يجعل هذا الخطاب موجها للعناصر التي تهدد ملك السلطان، خاصة وأن هذا الأخير طلب من الشيخ احماد أوموسى: "أنه لا يمكنه العيش بدونه ولا يأمن على نفسه ولا تأويه أرض إن هو تخلى عنه"[52]

لقد أستمد عبد الله الغالب قوته من قطب أولياء سوس بواسطة النداء التاريخي الذي ضمنه ذلك الخطاب المنقبي الذي جاء فيه: "يا عرب يا بربر ،يا سهل، يا جبل، أطيعوا السلطان عبد الله ولا تختلفوا عليه"[53]

من أي منطق صاغ الشيخ احماد أوموسى هذا الخطاب المنقبي؟ وأية فئة اجتماعية استهدفها؟ أهي فئة العلماء والأولياء؟ أم فئة العوام؟ وما هي دلالات طلب السلطان عبد الله الغالب الذي أفرز هذا الخطاب المنقبي؟ وهل يمكن مقايسة الخطاب المنقبي بالخطاب التاريخي؟

لا شك أن هناك مسافة ترابية بين هذين الخطابين تستدعي منا مقاربة الأول بالثاني، إذ طلب السلطان عبد الله الغالب يمكن تقسيمه حسب الوحدات اللسانية[54] إلى ست ملفوظات:

أنه لا يمكنه العيش/أي السلطان عبد الله. بدونه/أي الولي احماد أوموسى. ولا يأمن على نفسه/السلطان ولا تأويه أرض/السلطان. إن هو تخلى/أي الولي. عنه/ أي عن السلطان. بالفعل هو نص منضد متسق منسجم ومختصر بضم كل آليات التواصل والخطاب.[55]

لكن على مستوى الانسجام[56] يمكن أن نسائل النص هل هناك علاقة تفاعل بينه وبين الواقع؟ وهل الخطاب المنقبي للشيخ احماد أوموسى يسير بنفس التقابلية في السياق والأهداف؟ وهل هذا لخطاب حاز على مقومات إنتاجه خاصة المنقبية منها؟

النداء التاريخي الذي جاء على لسان الشيخ يمكن معيرته بواسطة وضعه في سياقه المنقبي، وهو الذي جاء فيه: "ياعرب يا بربر، يا سهل يا جبل، أطيعوا السلطان عبد الله ولا تختلفوا عليه".

جاء عن اليوسي في المحاضرات أن "امرأة من تلامذة الشيخ أرسلت ابناً لها في حاجة، فوقع في النهر فغرق، فبلغ الخبر إلى الشيخ قبلها، فقال للجنيد: قم بنا نكلمها في مقام الصبر، فقالت ما أردت بهذا يا أستاذ؟ فقال: إن ابنك مات، فقالت: ابني؟ ما كان الله ليفعل ذلك، ثم هرولت نحو النهر، ونادت يا فلان فقال: لبيك أمّاه وخرج إليها يسعى، فنظر السري إلى الجنيد وقال: هذه امرأة محافظة على ما لله عليها، ومن شأن من كان كذلك أن لا يحدث الله أمراً حتى يعلمه، فلما لم يعلمها الله علمت أنه لم يكن.

قبل أن نعرج على الولاية الوقتية أيام عبد الله الغالب، يمكن أن نحلل الخطاب المنقبي الذي دفع بالشيخ احماد أوموسى إلى هذا النداء الذي لم يميز فيه بين الإنسان والجماد على ضرورة طاعة السلطان وعدم الاختلاف عليه.

السلاطين السعديون أدركوا أهمية استقطاب الأولياء والعلماء، وذلك لاكتساب المشروعية لدولتهم في مرحلة البناء، وكانت ثمرة ذلك أن الفقهاء والأولياء السوسيين الجزوليين هم من أقام عماد الدولة السعدية حسب المختار السوسي.

وإذا كان السلطان عبد الله الغالب قد تصدى للغزو التركي لمدينة فاس[57] فإن المناوءات الدائمة لمدينتي سبتة وطنجة، قد أوجد عندهم الرغبة في التدخل في شؤون المغرب، لذا هادن بعض القوى الأجنبية الأخرى[58] مما أجّج على الغالب ضغط الأولياء، خاصة

---

[51]–Paul Pascon– La maison d'Iligh P 156.

[52]–محمد المهدي الفاسي، (م م)، صص: 60–61.

[53]–نفسه، ص 60.

[54]–ب.شارودو، د منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة حمادي صمود والمهيري، دار سيناترا، تونس 2008، ص. 180.

[55]–محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء، بيروت 1996، ص 35.

[56]–نفسه، ص 35.

[57]–الافراني، النزهة... (م م)، ص 46.

[58]–الناصري، الاستقصا... (م م)، ج 5، ص49.

بعد تسليمه القصر الصغير للفرنسيين في العام 1559م[59] وهذا ما جعله يسعى إلى تمتين العلاقة مع الأولياء الجزوليين الذين لهم نفوذ كبير في المغرب خاصة مع قطب الزاوية السملالية الشيخ احماد أوموسى[60] لذلك حاول عبد الله الغالب الاستغاثة بالأولياء والصلحاء[61] في حين لم "تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله"[62]

نعلم أن "السلطان رحل بكل جيشه في أبهة ملكه حتى نزل على الشيخ بتازروالت فاستضافه الشيخ ثلاثة أيام ثم رجع إلى مستقره بمراكش"[63] وأثناء هذه الرحلة اختار السلطان عبد الله الغالب الشيخ احماد أوموسى مستشارا خاصا له في تدبير أمور الرعية[64].

وقد صرح الشيخ عندما سأله أحدهم عن القطب؟ فقال له: أنا، فقال: ثم من؟ قال: سيدي محمد بن محمد بن ابراهيم التمنارتي، فقال: ثم من؟ قال الملك عبد الله، ثم لا تسألني بعد !.[65]

سوف لن يدوم هذا التقارب الحاصل بين الغالب والأولياء، حيث جعله بعضهم "رجلا صالحا لا سلطانا"[66] ورفعه بعضهم إلى "مرتبة الأولياء الأفذاذ"[67] وجعله بعضهم في "مرتبة القطب".[68]

لابد أن نتساءل إذا عن العلاقات التي كانت تربط الأولياء بمجالهم القبلي؟

التوبة عند أهل السلوك، لا تعني الإقلاع عن الذنوب والمعاصي والآثام فحسب، كما هو مسطر في الشرع الحنيف، وإنما هي أوبة وولوج حياة جديدة تختلف عما كان عليه السالك من قبل، وهذا ما جعل أهل السلوك يشبهون مقام التوبة: "بالميلاد الجديد" Le Nouveau éveil [69] وهكذا إذا كان العبد صادقا في طلب التوبة، يصل لا محالة إلى التوبة النصوح، لذلك فالصحبة في هذا المقام يطلق عليها "صحبة السلوك" إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم عونا لصحابته على دنياهم وآخرتهم، وقد ذكر الحسن اليوسي أن صحبة الشيخ وأتباعه تمنع المريد من الانقلاب والعودة إلى الباطل، بل وتبعد النفس عن التشوف إلى المعاصي، ويثقل فعلها على نفسه، وهذه أولى بركات الصحبة،لأن علوم الأحوال الصوفية هي بالأساس علم القلوب، وهي لا تتأتى إلا بالصحبة والملازمة.[70]

إن المريد يفتقر دائما إلى الشيخ المربي افتقار وجوب واضطرار، حيث لا يسعه غيره[71]، فهو الذي يوصله إلى الصفاء الروحي، ويمده بالإرشاد ليظفر بفرحة الوصول، مع الالتزام بآداب الصحبة.[72] لكن الملاحظ أن الصحبة ليست وحدها كافية لكي يصبح المريد "وليا"، فدورها يتمثل في الإرشاد والهداية فقط، ويبقى دور المجاهدة منوطا بالمريد للفوز بالعناية الإلهية، والسالك الذي بدأ طريق السلوك عليه أن يتمثل الشعار المعروف "ايها السالك دع نفسك وراءك" وتطبيق "الخلوة" والانغماس في العبادات والطاعات بكل الجوارح حتى تصل إلى مستوى الخواطر، وهي أعلى معاني الذكر وأشقها على النفس.[73]

لقد اهتمت زاوية تيدسي من خلال وليها أبي البركات التيدسي، بالمريدين على المستوى الروحي–التربوي، وفي نفس الوقت قعدت

---

[59]–Caillé ,La repesentation diplomatique de la France au Maroc, Paris, 1951, P10.

[60]–الحاجي، الدولة السعدية... (م،م) ص. 231.

[61]–Michaux Billaire, Essai sur l'Histoire des confréries Marocaines

[62]–الناصري الاستقصا، (م م) ج5، 231.

[63]–نفسه، ص 140.

[64]–Meunie (J, D) Le Maroc Saharien...P.471.

[65]–عبد الله الحاجي الدولة السعدية... (م م) ص 231.

[66]–المختار السوسي، المعسول (م م) ج12 ص 17.

[67]–الافراني، صفوة من انتشر..(م م) ص62.

[68]–التمنارتي، الفوائد...ص112

[69]–أبو العلاء، عفيفي التصوف الثورة الروحية في الاسلامن دار المعارف، الاسكندرية، 1963، ص.263.

[70]–الحسن اليوسي، رسائل اليوسي، جمع وتحقيق، فاطمة القبلي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، صص 97–120.

[71]–محمد العربي الفاسي، مراة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، المطبعة الحجرية، فاس، 1906م، ص97.

[72]–عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر: نشأتها ونظمها وروادها، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص38.

[73]–عفيفي، (م م)، صص: 145–146.

للسلوك الجهادي، بحيث يبدأ التدريب على محاربة الهوى والشيطان وتطهير النفس من أدران الرياء والعجب والسمعة، إلا أنه في عمله هذا لا يعتمد على مذهب الملامتية[74] الذي انتشر بالمغرب في هذه الآونة والذي يختلف في تعاليمه عن الصوفية.

ألف العالم عبد الوارث اليصلوتي رسالة تحامل فيها على الشيخ أحمد بن يوسف ومذهبه وأتباعه من طائفة العكاكزة، عنونها ب "المسلك القريب الموصل إلى حضرة الحبيب"، كما أدان العالم العامل الحسن اليوسي الحكام والعلماء لتهاونهم في أمر طائفة العكاكزة، حيث ألف في الموضوع رسالة عنونها ب "رسالة العكاكزة"[75]

بدهي أن أهل السلوك من الصلحاء قد عانوا معاناة شديدة من الفقهاء القاعدين إذ أن الشيخ أبا محمد صالح الماجري يقول: "لما قدمت من بلاد المشرق، وأخذت في استعمال هذا الطريق، أنكر علي فقهاء الوقت وبدعوني، حتى ضاق صدري وعيل صبري..."[76]

لقد عرف القرن العاشر الهجري بالمغرب تكاثراً لعدد الأولياء بالمقارنة مع المراحل الأولى، خاصة وأن التصوف الذي ظهر في هذه المرحلة يغلب عليه الطابع السني، الملتزم بالكتاب والسنة، البعيد عن الطوائف المغالية والمتطرفة حيث كان متأثرا بمدرسة الإمام الغزالي ومدرسة القشيري وأبي طالب المكي الذين تأثروا بالمدارس الصوفية المشرقية.[77] لقد ظهر الصوفية كقوة جهادية في بداية القرن العاشر الهجري، وقاموا بدعم ومساندة الأشراف السعديين في قيام دعوتهم في بداية الأمر، وبناء دولتهم بعد ذلك، لذلك سمي هذا العصر بحق "عصر التصوف السني"[78].

الإشعاع الروحي لتيدسي عاصمة الدولة السعدية خلال ق 10هـ/16م.

لقد رأينا كيف اهتم الشيخ أبو البركات التيدسي بتربية المريدين تربية جهادية في تيدسي، لأن وظائفها كانت تتمثل في تعميق الشعور الديني، وبث مبادئ التصوف العلمي.[79] وقد اشترك الشيخ التيدسي مع الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي في نفس النهج، لأنهما عايشا بدايات الدولة السعدية، بل كانا أوتاد قيامها، فرغم أن الشيخ الأقاوي بنى زاويته بالقرب من قصبة أقا، التي بدأت تتوسع في العمران حتى أصبحت من المراكز التجارية الهامة في منطقة طاطا، أي في خطوط التجارة الصحراوية مع دول أفريقيا جنوب الصحراء، إلا أن للشيخين المذكورين الفضل الكبير في تنظيم الحملات الأولى ضد البرتغاليين الذين استولوا على حصن "سنتاكروز دي غير" وكان ذلك في العام 917هـ/ 18 غشت 1511م.[80]

كان الشيخ محمد بن مبارك الأقاوي قد تأثر بآراء الشيخ محمد بن سليمان الجزولي التي تنبني على التصوف السني، وذلك بمناصرة السنة ومناهضة البدعة، حيث كان المتصوفة في سوس و أقا يتمثلون مبادئ أبي حامد الغزالي التي يقول فيها: "إن العقل وحده قاصر عن إدراك المعرفة الحقة، والاتصال بالحقيقة العليا، التي هي الله وأسماؤه الحسنى وصفاته، وأن الذوق وحده هو الذي يستطيع به الصوفي إدراك المعرفة الحقة، وأن يتصل بالحقيقة العليا"[81] ولا غرو أن يكون شيوخ الزوايا بسوس و درعة هم أسس الدولة الشريفة إذ أن "أبا عبد الله محمد القائم بأمر الله ماهد دولة الشرفاء، إنما كان نهوضه بإشارة من الصالحين، وإذن من العلماء العاملين"[82]

لقد كتب الكثير عن مفهوم" الصلاح "وعن مواضيع الرباطات والزوايا في المغرب الحديث، وترتب عن ذلك أن الأجانب الذين كتبوا

---

[74]–الملامتية: هي مخالفة النفس ومحاربتها ولومها، والظهور للناس بمظاهر لا تتفق مع ظاهر الشرع، استجلابا لملامة الناس وتأنيبهم وعلى هذا الأساس سموا بالملامتية "تمييزا لهم عن الصوفية.

[75]–الحسن، اليوسي، المحاضرات في الادب واللغة، ج2، ص398.

[76]–أحمد الماجري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، المطبعة المصرية، القاهرة، 1923، ص 248.

[77]–الحاجي، الدولة السعدية، م م، ص 76.

[78]–نفسه. ص75

[79]–الحاجي، الدولة السعدية... (م م)، ص.78.

[80]–نفسه. ص 78

[81]–نفسه، ص 80.

[82]–محمد الفاسي، مرآة المحاسن... (م م) ص 70 +الافراني، النزهة ... ص12.

دراساتهم، حصروا الاسلام في المسجد، وأبعدوه عن الحياة العامة واستتباعاتها، وأوجدوا مسافة بين الدين والدنيا، بالرغم من أنه كان يعرف أحيانا مظاهر جمود في الدين[83] إلا أن الاسلام في شرائعه كلها يختلف اختلافا كليا وجوهريا عن المسيحية في ثوبها الكنيسي الكهنوتي، ذلك أن الطريقة الشاذلية بفرعيها الجزولي والزروقي ليست تعبيرا عن المفهوم الاسلامي "للإصلاح الديني" كما قرر ذلك بعض الباحثين[84] في حين نجد أن Berque (J) ينفي هذه النهضة أو الاصلاح الديني وأكد أن أوربا عكس المغرب[85] عرفت حروبا طاحنة وطويلة الأمد أعادت النظر في المعتقدات الدينية.

من الواضح أن التدبير الديني للمجتمع المغربي أصبح واضحا في العصر الحديث حيث اهتم الصلحاء والأولياء والعلماء على السواء بالتأطير الديني السلوكي والعلمي من خلال مباشرتهم للتدريس واهتمامهم بالتأليف في علوم الشريعة والحقيقة.[86]

لذلك فمفهوم الدين في الاسلام يعتمد على نظام شامل ومتكامل لأمور الحياة كلها، ومناهج السلوك الإنساني، فالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، إذ العقيدة هي التصور الكامل لأمور الكون والحياة يعرف به العبد ربا واحدا للعالمين يعبده ويطيعه[87]. قال تعالى: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" [88]. أما الشريعة فهي طريق العابد الذي يسلكه إلى ربه، لأنها منهج علمي يحقق معنى العبودية لله سبحانه، ولذلك اهتمت الطريقة الجزولية ممثلة في الشيخين التيدسي والأقاوي بشمولية الدين، حيث اهتمت بشؤون الحياة وسلوك الناس، محققة لهم ما يحفظهم من الفساد والفوضى في دنياهم، وإعدادهم للسعادة الأبدية في آخرتهم[89]

إن التصوف في هذا العهد: "لم يعد مجرد سلوك لقوم زهدوا في ملذات الحياة، وأقبلوا على العبادة والذكر في الربط والزوايا، بقدر ما أصبح دراسة ومناظرة بين جماعة من النساك المتصوفة والعلماء بحثا عن العلل النفسية والأعراض المادية، ومن ضمنها المشاكل السياسية والانحرافات الاجتماعية، وذلك لأجل إيجاد حلول لتلك المشاكل ومعالجة العلل والعادات السيئة.[90] وعليه فإنه قد تم تأطير المجتمع دينيا واجتماعيا وسياسيا، لأن الزوايا الدينية قد تمكنت من التجذر فيه، وعمل الجهاز الصوفي على التغلغل بشكل واسع في الحياة الاجتماعية للإنسان المغربي الخاصة منها و العامة، بحيث كان حريصا أشد الحرص أن يكون حضوره ذا فائدة فعالة في المجتمع القبلي الذي عجزت السلطة السياسية عن رعاية شؤونه وحل مشاكله، وهو ما يبرر سبب انقياد كثير من القبائل المغربية أفراداً وجماعات لهذا التيار عن طواعية واختيار.[91]

الطريقة عند أهل التصوف السني اتخذت معنيين هما:

-أنها تدل على مجموعة من الآداب والأخلاق والمجاهدات التي يلتزم بها الصوفي لتحقيق الصفاء الروحي، والوصول إلى مقامات الولاية والاحسان، وقد انتشرت لدى حركة الزهد الإسلامية في بدايات ظهور التصوف.

-كما أنها تدل على التدبير الروحي لجماعة من السالكين الذين يشكلون هيئة صوفية منظمة، تضم شيخاً ومريديه.[92]

---

[83]-عبد الله كنون، ذكريات مشاهير. ص 18.

[84]-عبد الله، نجمي، بين زروق ولوثر في الإصلاح الديني والعصور الحديثة، مقالة ضمن منشورات كلية الآداب الرباط، الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات رقم 69، ص 79.

[85]-(J) Berque, Ulémas, Fondateurs, Insurgés du Maghreb, Sindibad, Paris, 1982, P. 14.

[86]-عبد الله الحاجي، الدولة السعدية (م م)، ص. 90.

[87]-نفسه، ص 90.

[88]-قرآن الكريم، سورة الذاريات، الآية: 56.

[89]-عبد الله الحاجي، (م م)، ص90.

[90]-محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، مطبعة فضالة، 1976، ج1، ص 63.

[91]-الحسن اليوبي، الفتاوي الفقهية في أهم القضايا من عهد السعديين إلى ما قبل الحماية، منشورات وزارة الأوقاف، مطبعة فضالة، المحمدية، 1998، ص. 362.

[92]-عبد الله الحاجي، الدولة السعدية... (م م)، ص. 100.

خلاصات وامتدادات

– بالرغم من انتشار ظاهرة التقليد، واختصار المختصرات التي أدت إلى جمود الفقه الإسلامي لعدة عصور، فإن جلال الدين السيوطي قد أكد أن "الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم وأعماهم حب العناد وأصمهم، فاستعظموا دعوى الاجتهاد وعدوه منكرا بين العباد، ولم يشعر هؤلاء أن الاجتهاد فرض "من فروض الكفاية في كل عصر، و واجب على أهل كل زمان أن تقوم به طائفة في كل قطر.[93] لذلك فالعلماء والأولياء وهم أهل الحل والعقد كانوا يتدخلون في إرشاد وتوعية وتوجيه الفئات الاجتماعية التي كانت ترتكب بدعا متعارضة مع روح الدين، وخاصة منها تحكيم بعض الأعراف التي لا تنسجم بتاتا مع الشريعة وأحكامها.

– كان العلماء والأولياء يهتمون بالمستويات المتباينة للذهنيات داخل المجتمع، فبالإضافة إلى تصويبهم لبعض الانحرافات الاجتماعية، حاولوا التخفيف من الأزمات العامة، حيث كانت مقاربتهم تجمع بين ما هو ديني وعلمي واجتماعي وسياسي، فهم وحدهم الذين وكل لهم النيابة عن المجتمع، لاتهم كانوا يشكلون قوة اقتراحية انطلاقا من هذه الأدوار التي اضطلعوا بها.

– بالرغم من الجمود الذي عرفه الفقه في العصر الحديث، إلا أنه عرف بالعصر الذهبي للتصوف، فقد كان علماء وأولياء العصر بحق يعبرون عن النظر في المصالح العامة والخاصة للأفراد، كالأحوال الشخصية والمواريث وأحكامها وكل ما يتعلق بالأمور الشرعية[94]، وأول من استفاد من هذه الوظائف الدينية بواسطة السفارات والرحلات التجارية هي دول أفريقيا جنوب الصحراء.

مصادر البحث

1– عبد الرحمن بن خلدون. العبر وديوان المبتدأ والخبر....

2– عبد الله الحاجي. السكر: اوراش في التاريخ القتصادي المغربي. مرقون، قيد الطبع، 2020.

3– عبد الله الحاجي، رحلة الحسن الوزان إلى دول أفريقيا جنوب الصحراء: تقاطعات الأبعاد الفكرية والأبعاد الحضارية. قيد الطبع

4– ليفي بروفنصال– مؤرخوا الشرفاء، نشر هوداس..

5– محمود كعت، تاريخ الفتاش ... باريس، نشر هوداس، 1964م.

6– الحسن الوزان. وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر عن الفرنسية.

7– محمد حجي، مذكرات من التراث المغربي، ج3.

8– الافراني، نزهة الحادي...

9– علي التمكروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، المطبعة الملكية، الرباط، 2002.

10– كعت، تاريخ الفتاش...مصدر مذكور +الفشتالي. مناهل الصفا....

11– داوود الكرامي، بشارة الزائرين الباحثين في حكاية الصالحين.

12– الحاجي. تقاطعات المجتمع...، م. م، ص 17.

13– المهدي، الفاسي. ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع ومالهما من الاتباع.

14– عبد الرحمان التمنارتي، الفوائد....

15– ابن عسكر، دوحة الناشر....

[93]–جلال الدين، السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، ص 65.

[94]–الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت 1978، ص 70–71

16- احمد البعقيلي، مناقب البعقيلي..

17- المختار السوسي، المعسول، ج 12.

18- أحمد الرسموكي. وفيات الرسموكي، مصادر المعسول (2) تحقيق المختار السوسي.

19- عبد الله الحاجي، الدولة السعدية...أفريقيا الشرق،2013، الدار البيضاء

20- مصطفى ناعمي. مادة إزركين، معلمة المغرب، ج1،

21- محمد شفيق. أسماء الأماكن معظمها أمازيغية، مجلة البحث العلمي، ع27 يناير-يوليوز 1977.

22- Justinard(L.C). Notes sur l'HiSToire du sous au 16 S, Hésperis Tamuda, 1925,P266 SIDI Ahmed ou Moussa, in AR chives Marocaines,.

23- Meunié (J.D) Le Maroc Saharien des origines à 1670.

24- Pascon(P). La Maison d'Iligh.

25- محمد القبلي. مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الآداب، ع3، و4، الرباط، 1978.

26- أحمد زروق. فوائد من كناشة زروق، مخطوط خ. ع، الرباط، رقم:9 1385.

27- محمد الحضيكي، طبقات الحضيكي،

28- أبو القاسم الحلفاوي، شمس المعرفة في سيرغوت المتصوفة، م خ ع، الرباط، رقم د: **1720**.

30- محمد المهدي الفاسي،

31- ب.شارودو، د منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة حمادي صمود والمهيري، دار سيناترا، تونس 2008.

32- محمد مفتاح، التشابه والاختلاف نحو منهاجية شمولية، المركز الثقافي الغربي، الدار البيضاء، بيروت 1996.

33- جلال الدين، السيوطي، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض.

34- الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت 1978.